المقدمة

مدينة "بلخ" ١٢٠٧ م، مدينة "قونية" ١٢٧٣م.

هذان هما تاريخا ميلاد ووفاة سلطان القلوب مولانا "جلال الدين الرومي". فالرومي ولد قبل ٨٠٠ سنة وفارقَنَا قبل ٧٣٤ سنة. ولكنه وصل إلى سر ولادة لا يقربها الموت. وعلى الرغم من مرور العصور وآلاف السنين فإن هذا الإنسان المحظوظ لا يزال موجوداً بيننا بكل حيوية برسالته التي لا تبلى ولا تموت. فما أبرك هذا العمر الذي لا يحظى به كل إنسان فانٍ! فالزمان الذي طوى صفحات كثير من العظماء وأبعدهم عن ذاكرة البشرية، ردد اسمه الطيب على ألسنة الناس وغرس حبه في القلوب والأفئدة. فكل يوم يمر تتوسع فيه هالة الحب حول رسالته السامية وتتألق، فنهر هذا الحب يزداد تدفقاً منذ ثمانية عصور، فيغذي الأرواح المشتاقة والقلوب العاشقة. لذا فلا شك أن هذا النهر لا يزال يروي ظمأ العديد من الشفاه الجديدة والقلوب الضارعة، ويحيي النفوس الميتة، حتى إن "اليونسكو" التي اعترفت بحاجة الإنسانية إليه سجلت سنة ٢٠٠٧ "عام جلال الدين الرومي".

[ولكن ما منبع كل هذا الاهتمام الموجه لمولانا جلال الدين الرومي؟ لماذا يكون هو بؤرة كل هذا الحب والتوجه من بين العديد من المتصوفين الذين نهلوا من نفس النبع الإلهي؟

يحتمل أن نجد جواب هذا السؤال عند المستشرق "أ.ج. آربري" الذي قال: "هناك عبقرية تصوفية سامية تجلت في شخصية الرومي، لذا فنحن عندما نتطلع إلى المنظر المدهش للمتصوفة من الشعراء نرى الرومي قائما كطود جبل، ولا يشكل المتصوفة الذين نريد مقارنتهم به -سواء الذين جاؤوا قبله أو بعده- إلا مجرد تلال على سفح سلسلة جبل شاهق".

وقال المؤرخ المعروف "همّر" قبل عصرين واصفا "المثنوي" بأنه: "المرجع الأساس لأصحاب التصوف جميعا؛ من نهر كانج إلى شواطئ البسفور". وهذا التعريف صحيح ولكنه ناقص، لأنه بوسعنا أن نرى اليوم محبي "المثنوي" ومتبعيه وراء المحيطات أيضا.]

ويتكلم الرومي في كتابه "المثنوي" عن أطباء الروح والمعنى إلى جانب أطباء البدن. وحسب رأي "آربري"، فإن الرومي هو الطبيب المعنوي الذي يبحث عنه إنسان عصرنا المسجون في قفص الكراهية والإهمال والتفسخ. ثم يقول: "لقد أنقذ الرومي العالم من القلق والاضطرابات قبل سبعمائة سنة، وأوروبا اليوم لن تستطيع أن تتخلص من معاناتها النفسية إلا عن طريق كُتُبه التي ألفها". أما "إيرانا ماليكوف" فتقول: "لئن قامت أمم العالم بترجمة كتب جلال الدين الرومي إلى لغاتها وقرأتها بوعي، لانتهت الحروب وأزيلت الحقود وانطفأت شرارات الكراهية والبغضاء بين البشرية جمعاء، ولانتشر الحب والسلام في كافة أرجاء الدنيا".

ليست "إيرانا ماليكوف" وحدها تقول هذا، بل يشاركها في رأيها الكثيرُ من المفكرين والمثقفين؛ حيث يعقدون على الرومي الأملَ في إقامة سلام عالمي يشمل الإنسانية كلها. لماذا؟ لأنه وإن ولد في مدينة "بلخ" ودفن في مدينة "قونية" إلا أن حبه انتشر في مساحة أوسع مما بين "بلخ" و"قونية". فهذا القلب تَجاوز الزمانَ والمكان واتسع ليحتضن الكون كله. فكم من شخص في التاريخ الإنساني استطاع أن يقول: "الأرض بيتي والبشرية أسرتي!"

لقد تكلم مولانا جلال الدين الرومي -الذي اعتُبر الإنسانَ الكامل والوارثَ الحقيقي للنبي المُرسَل رحمة للعالمين- بلغة فوق جميع اللغات؛ فإحدى رجليه كانت مثل فرجار ثابتةً على قيمه هو، والأخرى متحركة حول مساحة تحتضن اثنتين وسبعين ملة وشعبا. لقد رأى المسلمون فيه الأخلاقَ المحمدية ﷺ، ورأى فيه المسيحيون خُلُق المسيح عيسى عليه السلام ورأى فيه اليهود خلُق موسى عليه السلام.

كان يمثل النضج العقلي في أعلى مراتبه، والنبضَ القلبي في أرقى وأروع مشاعره؛ واتحدت عنده المدرسة والتكية، ولذا استطاع إشباع العقول وإرواء

القلوب والأرواح في آن واحد. فهو دعوة مستمرة إلى الحب، ونداء دائم إلى السعادة والجمال من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل. ونحن نقول عنه ما قاله هو عن شمس التبريزي:

رشوا المياه على الطرقات،
وبشِّروا الحدائق والجنان،
عطرُ الربيع آتٍ،
ها هو آتٍ، ها هو...
بدرُنا، روحُنا، حبيبنا آتٍ
افسحوا الطريق، استقيموا، تفسحوا،
قِفوا جانبا وتنحَّوا،
صاحب الوجه النير، وجه النور الوضاء
انبعثت الأرض على خطواته،
ها هو آت، ها هو...

ومهما سُردت الأقوال عن مولانا جلال الدين الرومي وأُطلقت الكلمات، فلن تكفي لإعطاء هذه الشخصية العملاقة حقَّها. لذا فنودّ فيما يلي أن نقدّم في أسطر قليلة موجزا عن الكتاب بين أيديكم ومحتوياته.

فهذا الكتاب الذي أكملناه عام ٢٠٠٧م يتألف من أربعة فصول. وكانت غايتنا أن يكون مفهوما أكثر من كونه كتابا أكاديميا، مع أننا رجعنا فيه إلى مصادر رئيسية حول المواضيع. وقد خصصنا الفصلين الأول والثاني لحياة جلال الدين الرومي ومؤلفاته، أما القسم الباقي فقد خصصناه لشرح فكره بشكل موجز. وهو مستقىً من كتابيه "المثنوي" و"فيه ما فيه".

جيهان أُوكويوجو
جامعة الفاتح / إسطنبول
نيسان ٢٠٠٧